أندلسيات :

٢ ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

يتشابه الفتح بن خاقان وأبو الحسن بن بسام فى أنهما كانا متعاصرين ، وفى أنهما تصديا للكلام على أدباء الأندلس من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والملوك ممن عاصرهما ومن كان قبل عصرهما ، وفى أنهما كانا يرسلان الى معاصريهما يعرفانهم عزمهما ويسألانهم إنفاذ شىء من منثورهم ومنظومهم ليذكراه فى كتابيهما : الأول فى قلائد العقيان ومطمح الأنفس ، والثانى فى الذخيرة . قال العماد الكاتب صاحب خريدة القصر : حدثنى الصاحب الكبير العالم جمال الدين بن أكرم قال : لما عزم ابن خاقان على تصنيف كتاب قلائد العقيان جعل يرسل الى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويُعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شىء من شعره ونظمه ونثره ليذكره فى كتابه . وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون اليه ذلك وُصُرَرَ الدنانير ، فكل من أرضته صلته ، أحسن فى كتابه وصفه وصفته . وكل من تثاقل عن بره هجاه وثلبه . وكان ممن تصدى له وأرسل اليه أبو بكر بن باجه المعروف بابن الصائغ ، وكان وزير ابن فلويت صاحب المرية . وهو ـ أى ابن الصائغ ـ أحد الأعيان وأركان العلم والبيان . شديد العناية بعلم الأوائل ، مستول على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه فى المغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف فى المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته تهاون بها ولم يعرها طرفه ، ولا لوى نحوها عطفه ، وذكر ابن خاقان بسوء بلثه ، فجعله ختم كتابه ، وصيّره مقطع خطابه . وقال : هو رمد جفن الدين الخ وبلغ ذلك ابن الصائغ ، فأنفذ له مالاً استكفّه به واستصلحه ؛ وصنف ابن خاقان كتابا آخر سماه مطمح الأنفس وصله بقلائد العقيان افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء جميلاً الخ وكذلك نرجىء الكلام على ما كان بين ابن خاقان وبين الفيلسوف ابن باجه أو ابن الصائغ إلى ما بعد الفراغ من الموازنة بين ابن خاقان وبين ابن بسام ... وقد ظهر لك مما أوردناه هنا من كلام العماد أن ابن خاقان كان يرسل الى أعيان الأندلس ليرسلوا اليه آثارهم ، وكذلك كان يفعل ابن بسام صاحب الذخيرة ... قال المراكشى صاحب المعجب : فما أختار له ـ أى لأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال أحد كتاب الأندلس البلغاء النابهين ـ فصول من رسالة كتب بها مراجعا لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة ... وهذا هو محل الشاهد ... ودونك الآن فصولا من هذه الرسالة ـ أى رسالة ابن أبى الخصال الى ابن بسام فانها من طرف الأندلسيين . قال : وصل من السيّد المُرقّ ، والمالك المستحق ، وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل ، كُتابه البليغ ، واستدواجه المُريغ [1] . فلولا أن يصله زند اقتداحه [2] ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه ، للزمت معه قدرى ، وصنت سريرة صدرى . ولكنه بنفثات سحره يُسمع الصّمّ ، ويستنزل العُصْم ، ويقتاد الصعب فيصحب ، ويستدر الصخور فتحاب ، ولما فجأنى ابتداؤه ، وقرع مسمعى نداؤه ، . فزعت الى الفكر ، وخفق القلب بين الأمن والحذر ، فطاردت من الفقر أوابد قَفْر ، وشوارد عُفْر ، تُغيرُ فى وجه سائقها ، [3] ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقها ، فعلمت أنها الاهابة والمهابة ، والاصابة والاستراية ، حتى أياستني الخواطر ، وأخلفتني المواطر ، إلا زبرجا يعقب جوادا ، [4] وبهرجا لا يحتمل انتقادا . وأنّى لمثلى والقريحة سرّجاة [5] ، والبضاعة مزجاة [6] ببراعة الخطاب ، وبراعة الكتاب [7] . ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قِدْح ، ولا تحصّل لى فى سوقه ربح ... وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النُّتف الأخيرة . وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القَدْح فى اختيارك ، والاخلال بمختارك ... الى أن يقول : وعذرا أعزك الله فانى خططت ما خططته والنوم مغازل ، والفَرّ منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول صولة الحجاج ، فطورا تسدّده سنانا ، وتارة تحركه لسانا ، وآونة

(١) يريد المخادع (٢) صله انزند يصله بكسر اللام صوت ولم يخرج نارا (٣) غير فى وجهه سبقه (٤) يريد السحاب الرقيق لا ماء فيه (٥) من الأرجاء وهو التأخير (٦) قليلة (٧) ظرف وخفة روح

تطويه حيا به ، وأخرى تنشره ذؤابه ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفه بُرَة ذهب . أو حمة عقرب . وتقوّسه حاجبَ فتاة ، ذات غمزات ، وتسلطه على سليطه ، وتزيله عن خليطه ، وتخلعه نجما ، وتمده رجما ، وتسلّ رُوحه من ذُبالِه ، وتعيده الى حاله ، وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد . ومَشَقَتْه حروف بَرْق ، بكفّ وَدْق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا حَظَّ منه للعين ، ولا هداية في الطرس لليدين ، والليل زنجيّ الأديم ، تبرى النجوم ، قد جَلَّلنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت ، أو غُضِبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صانح خيشومُه ذَنَبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه . والتَوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحَبَاب [1] ، وجَلَدَه الجليد ، وصمّد أنفاسه الصعيد ، فَحِماه مُباح ، ولا هرير ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاءُ مُغْرب ، أو نجم مُغَرّب ، استوى الفصل ، ولك في الأعضاء الفضل ، والسلام ...

* * *

وقد حدثنا الفتح في قلائده أنه هو الآخر كتب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال مستدعياً لمن كلامه ما يثبته في الديوان ـ يريد قلائد العقيان ـ وينبته فيه زهر بستان ، فكتب اليه ابن أبي الخصال رقعة يقول فيها : الحذر ـ أعزك الله ـ يؤتى من الثقة ، والحبيب يؤذى من المقة ؛ وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة ، وأقنع من ثنائك وهو المسك بنفحة ، فما زلت تعرضني للامتحان ، وتطالبني بالبرهان ، وتأخذني بالبيان ، وأنا بنفسي أعلم ، وعلى مقداري أحوط وأحزم ، والمُبعدي يُسمع به لا أن يُرى ، وإن وردت أخباره تَرَى فشخصه مقتحم مزدرى ، ولا سيما من لا يجلي ناطقا ، ولا يبرز سابقاً ، فتركه والظنون ترجمه ، والقال والقيل يقسمه ، والأوهام تحله وتحرمه ، وتخفيه وتحترمه ، أولى به من كشف القناع ، والتخطف عن منزله الامتناع ، وفي الوقت من فرسان ، هذا الشان ، وأذمار هذا المضمار ، وقطان هذه المناهل ، وهداة تلك المجاهل ، مَن تحسد فقره الكواكب ، ويترجل اليه منها الراكب ، فأما الأزاهر فلقاة في رباها ، ولو حلت عن المسك حباها ، وصينت من الشمس حلاها ، فهي من الوجد تنظر بكل عين شكرى ، لا نكرى ، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثة ، وبدائعهم منثوثة ، وخواطرهم على محاسن الكلام مبعوثة ، فما غادرت متردما ، ولا استبقت لمتأخر متقدماً ، فعندها يقف الاختيار ، وبها يقع المختار ، وأنا أنزه ديوانه النزيه ، وتوجيهه الوجيه ، عن سقط من المتاع ، قليل الامتاع ، ثقيل روح السرد ، مهلك صر البرد ، إلا أن يعود به جماله ، ويحرس نقصه كماله ، وهبه أعزه الله قد استسهل استلحاقه ، وطامن له أخلاقه ، أترانى أعطى الكاشحين في انتابه يدا ، وأترك عقلي لهم سدى ، وما إخالك ترضاها لي مع الود خطة خسف ، وسهواة حتف ، لا يستغل غبينها ولا يبل طينها . . . . الخ الخ فهي رسالة طويلة وإن كانت على طولها ممتعة جميلة . . . . . .

(١) الحباب الأولى بضم الحاء الحية والثانية بفتحها الطل الذي يصبح على النبات وحباب الماء نفاطاته وفقاقيعه التي تطفو عليه

موازنة ومفاضلة

والآن فلنعرض للموازنة بين الفتح وبين ابن بسام مادام بينهما هذا التشابه الذي ذكرنا . . . . قال الحجاري صاحب المسهب : وهو ـ الفتح ـ وأبو الحسن بن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلما مفيداً ، واطنابا في الأخبار ، وامتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس ... هذا هو كل ما عثرنا عليه للمتقدمين من مفاضلة بين هذين الفاضلين ، ونحن فنقول : إن المتفقد لكتاب الذخيرة لابن بسام ، وكتابي القلائد والمطمح لابن خاقان ، يتبين له أن الفتح في الحق أضخم عبارة ، وأجزل أسلوباً ، وأقدر على التعميق والتزويق والتهويل ، ويغلب ذلك على أكثر تراجمه ؛ وقد يتعمل حتى يرى أثر التقعر محساً ملموسا ، وهو مع هذه الجزالة والضخامة ، أقل تقييدا وعلما مفيداً . دع تقصيره في تراجمه من ناحية التحقيق التاريخي فلا هو يذكر اسم المترجم كاملا ولا نسبه ولا بلده ومنشأه ، ولا تاريخ مولده ووفاته ، فكأنه يترجم لناس يعرفونهم كل المعرفة ، وانما الذي ينقصهم هو أن يلموا ببعض آثار أولئك المترجمين المعروفين ، وأن يقفوا على بلاغة الفتح